الإعجاز القرآني بين الواقع والتأصيل

إعداد الدكتور

د. خالد بن محمد العثيم

أستاذ اللغة المشارك في كلية الملك خالد

المملكة العربية السعودية

الإعجاز القرآني بين الواقع والتأصيل

خالد بن محمد العثيم

قسم: الدراسات المدنية، كلية الملك خالد العسكرية، الرياض، السعودية.

البريد الإلكتروني: khalid.m123@hotmail.com

ملخص البحث

عرض الباحث في بحثه مفهوم الإعجاز، ونشأة مصطلح الإعجاز، ووجوه إعجاز القرآن، وأن الوجه الإعجازي يمثل قاعدة عامة، يندرج تحته أكثر من أمر معجز، تجمعها وحدة موضوعية تتسق في أفرادها، بيد أن بعض المتعجلين نراه يجتزئ من الوجه الإعجازي عدّة أوجه، وهذا تكلف حدا بالباحث إلى التنبيه على مغالطات، وقع فيها بعض الباحثين من خلال تأصيل القول بالإعجاز ووجوهه، وبيان أن الإعجاز ليس مقصوداً لذاته، وإنما المقصود لازمه من التدبر والهداية، وأن أعظم المعجزات هو الوحي ذاته، فالإعجاز كامن فيه، ووصف منبعث منه، وأن النص القرآني مطلق، وهذا يتيح للمتأمل حركية المعنى غير المحدودة، وهذا حافز للعقول النيرة الخلاقة أن تبدع في اكتشاف أسراره، وإعجازه، غير أن الدعوة المطلقة لكشف الإعجاز، إنما هي لأولي الألباب المدققين المحققين؛ لأن إدراك إعجاز القرآن والكشف عن أسراره لا يتأتّى إلاّ لقلة قليلة في كل جيل.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الإعجاز، معجز، أوجه، التأصيل.

The Inimitability of the Holy Qur'an in between Reality and Originality

By: Khalid Bin Mohammed Al-Othaim
Department of Civil Studies
King Khalid Military College
Riyadh, Saudi Arabia
Email: khalid.m123@hotmail.com

Abstract

This research handles the concept of Qur'anic inimitability, its early beginning and its miraculous aspects. The miraculous aspects of the Qur'an constitute a general rule that encompasses various miracles. Objectively, those aspects appear in harmony. However, some hasty people underestimate those miraculous aspects. Therefore, the researcher is keen to warn his fellow researchers against these fallacies by tracing the roots of Qur'anic inimitability and its terrain in order to show that miracles of the Qur'an are not meant for their own peculiarity but for guidance and contemplation. The most important miracle of the Holy Qur'an is its revelation since the Qur'anic text is absolute. Hence, those miraculous characteristics allow the meditator to perceive the unlimited dynamics of meaning which would stimulate the mind to think creatively towards uncovering the secrets and miracles of the Holy Qur'an. Such open invitation is for men of understanding to work seriously on the inimitability of the Holy Qur'an and uncover more secrets.

Key words: The Holy Qur'an, inimitability of the Holy Qur'an, miraculous, aspects, originality.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله القائل في محكم كتابه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1]، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كان القرآن- وما زال- مصدراً ثرّاً للباحثين؛ لأنه من عند الله، ومصدر التشريع، والمرشد إلى سعادة الدارين.

ولقد أولى العلماء اهتمامًا فائقًا في كل ما يتعلّق بالقرآن الكريم من علوم، ومعارف، وكان للإعجاز نصيب وافر من هذا الاهتمام، فصنفت فيه الرسائل، والكتب، وتباينت آراء العلماء في تعليل إعجاز القرآن بماذا وقع؟، ومن ثم اختلفوا في وجوه الإعجاز، وكل يدلي بدلوه، وينتصر لمتحه.

والمتتبع لموضوع الإعجاز يلحظ كثرة المؤلفات الحديثة في إعجاز القرآن الكريم لا سيما التي تتحدّث عن اكتشاف وجوه إعجاز جديدة للقرآن الكريم لم تكن مذكورة من قبل، وليس العيب في كدّ الذهن، والانقطاع لهذا الكتاب المعجز، والكشف عن أسراره، ومكنوناته، بل هذا محمود لصاحبه، وعلوٌّ لقدره في الدارين، إنما التثريب على المتعجلين الذين تزببوا قبل التحصرم، فأتوا بعجيب من القول، وتكلف في وجوه الإعجاز ينزه القرآن عنه، فكانت فكرة هذا البحث (الإعجاز القرآني بين الواقع والتأصيل)، وفيه دعوة إلى التريّث، وضبط هذا العبث، والحد من التكلف في الكشف عن وجوه إعجاز جديدة، ودعوة لتأمل هذا القرآن العظيم الذي لا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه عالم، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

وهذا البحث فيه دعوة، وحث على الإتقان، والتريّث.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٨).

مدخل:

القرآن الكريم حجة الله على عباده، تنزل به الأمين على الأمين، في عصر بلغت العربية فيه أوج مجدها، وقوّتها... وهذا التنزيل أبرز للقوم من أسرار النظم، وجمال التعبير ما لا عهد لهم به، جمال أخذ على القوم مسامعهم، وهزّ كياناتهم فكانوا فريقين: فريق راعهم ما يسمعون، وأشربته قلوبهم فعلموا أنه الحق فآمنوا، وصدقوا، وفريق آخر ضلوا على علم وأضلوا، وهم يدركون تمامًا أنه ليس من عند محمد- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وما هو بقول شاعر، أو نفث ساحر، لكنهم أعرضوا، وكفروا عناداً وطغيانًا، وهؤلاء وأولئك أحسوا بإعجاز القرآن عند سماعهم له، وإن اختلفت مواقفهم منه، وتباينت فيه، لقد كان شعورهم بإعجاز القرآن فطريًا، وتذوقهم لجماله سهلاً قريبًا...

ذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[1]، فسجد، وقال: سجدت؛ لبلاغته.

وأن آخر سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا ﴾[2]، فقال: "أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا"[3].

فلم يرو لنا التاريخ رواية واحدة تفيد أن واحداً منهم عارض القرآن ليأتى بمثله مع أن القرآن تحداهم، وأفسح لهم في المدة، وطالبهم بخلع آلهتهم، ونبذ مألوف عاداتهم، وسفه أحلامهم، واستباح أموالهم، ودماءهم، وكل ذلك كان يمكن أن ينتهى لو جاءوا بمثل ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾[4]، أو بمثل ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ ﴾[5]، ولكنهم عجزوا عن ذلك وهو أهون سعيهم، ومألوف

(١) سورة الحجر: الآية (٩٤).

(٢) سورة يوسف: الآية (٨٠).

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيّة، للسفاريني، (دمشق، مؤسسة الخافقين)، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، (١/ ١٧٩).

(٤) سورة المسد: الآية (١).

(٥) سورة الكوثر: الآية (١).

أمرهم، ودفعوا إلى المخاطرة بأنفسهم، وقطع أرحامهم، وسفك دمائهم[١]، أمَّا هرطقات مسيلمة فلم يعدُ ما صح منها حماقات غذتها عصبية (لكذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر)، وإلاَّ فهو وهم يعرفونه معرفة عمرو بن العاص عندما سأله عمه عن مسيلمة فقال: "والله إنك لتعلم أني أعلم أنه كاذب"، بل (لم يرو التاريخ رواية واحدة تفيد أن واحداً منهم طاشت منه كلمة تقدح في بلاغة القرآن، مع كثرة ما رموا من أكاذيب)[٢].

وكان البيان في أنفسهم كما يقول الأستاذ/ محمود شاكر: "أجل من أن يخونوا الأمانة فيه، ولما طالبهم الحق أن يأتوا بمثله، لم ينصب لهم حكمًا، بل خلَّى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له، ثقة بإنصافهم في الحكم على البيان، فهذه التخلية مرتبة من الإنصاف لا تدانيها مرتبة"[٣].

"وفي هذه التخلية دليل ساطع على أن القرآن عوَّل على قدرتهم في تمييز طبقات الكلام، وهذه شهادة من الله لهم بالتفوق في هذا الباب... وبقيت هذه القدرة الناقدة، والمغروسة في طباعهم تعينهم على تمييز طبقات الكلام يحذقون بها نقده، ويحكمون بها عبارة، وهم في غنية عن النظريات، والأصول المدروسة التى يتأسّس عليها نقد الكلام، تمامًا كما كانوا في غنية بصحة طباعهم، وسلامة ألسنتهم عن المعرفة النحوية والصرفية، ولهذا لم يتكلموا في وجه الإعجاز، ولم يلتفتوا إليه؛ لأن برهانه كان قائمًا في نفوسهم... ومضى الأمر على ذلك حتَّى تبدلت أحوال العرب، ولانت جلودهم، ونجم في مجتمع المسلمين أهل التشكيك، وجاهروا بالزيغ، وكثر القول في القرآن وإعجازه"[٤].

---

(١) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، (بيروت، عالم الكتب)، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص٣٥- ٣٦، والإعجاز البلاغي، للدكتور/ محمد محمد أبو موسى، مصر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ص١٨١.

(٢) الإعجاز البلاغي ص١٨.

(٣) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر)، ١٤٠٢هـ، ص: ٣٢، من مقدمة الشيخ/ محمود شاكر.

(٤) الإعجاز البلاغي، للدكتور/ محمد محمد أبو موسى ص١٨- ٢٠.

المبحث الأوَّل

الإعجاز لغةً، واصطلاحاً

الإعجاز لغةً:

إثبات العَجز، والعَجز هو القُصور عن فِعل الشيء، وعدم القدرة على ذلك.

قال الراغب: "العَجز أصله التأخُّر عن الشيء، وحُصُوله عند عَجز الأمر؛ أي: مُؤَخَّرِه، وصار في التعارف اسمًا للقُصُور عن فعل الشيء، وهو ضدّ القدرة"(١).

وإذا ثبت الإعجاز، ظهرت قدرة المعجز، ووضحت المُعجزة.

والإعجاز: مصدر (أعْجَز)، ومعناه: نسبة العجز إلى الغير، وإثباته له، يُقال: أعجز الرَجُلُ أخاه: إذا أثبت عَجْزُه عن الشيء، وأعجزني فلان، إذا عجزت عن طلبه، وإدراكه(٢).

ومنه يُقال: (عَجَزَ) فلانٌ عن الأمر، وعَجِزَ عَجزاً فيها: إذا حاوله فلم يستطعه ولم تتَّسِع له مقدرته، وجهده. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾(٣).

قال الزجاج: معناه: ظانين أنهم يُعجِزوننا؛ لأنهم ظَنّوا أنّهم لا يبعثون، وأنه لا جنّة، ولا نار".

وفي الأثر: قول عمر: (لا تُلِثُّوا بدار مَعجِزَةٍ)؛ أي: لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب، والتعيّش.

فالإعجاز هو الفوت، والسبق بالنظر إلى حال المعجِز، وهو الضعف بالنظر إلى حال العاجز، وهو ضد القدرة(٤).

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص٥٤٧، وانظر: لسان العرب، مادة (عجز).

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (عجز).

(٣) سورة الحج: الآية (٥١).

(٤) انظر: لسان العرب، مادة (عجز).

ومن المجاز: عجز فلانٌ عن العمل إذا كَبُر[١].

فمعاني العجز في اللغة تدور على الضعف، والانقطاع، وعدم القدرة على تحصيل الشيء.

الإعجاز اصطلاحاً:

هو الإفحام بالحجّة حتى يعجز المفحم عن الجواب فتلزمه هذه الحجّة.

قال الجرجاني: "الإعجاز في الكلام هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"[٢]، فيعجز عن الإتيان بمثله كلُّ من يحاوله، فيصير هذا الكلام معجزاً للناس كلهم.

والمعجزة شرعًا: أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدّي سالم عن المعارضة[٣].

يقول ابن خلدون: "إنّ المعجزات هي أفعال يعجز البشر عن مثلها، فسميت بذلك معجزة، وليست في مقدور العباد، وإنما تقع في غير محلّ قدرتهم"[٤].

فالمعجزة إذن... خَرْق لنواميس الكون، أو لقوانين البشر، يعطيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسله؛ ليدل على منهجه، ويثبتهم به، ويؤكد للناس أنّهم رسله، تؤيدهم السماء وتنصرهم، والسماء حين تؤيد وتنصر، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئًا[٥].

وممَّا يميّز المعجزة كونها مخالفة للعادة، ناقضة لها، كما أشار إلى ذلك الخطابي بقوله: "وليس ينظر في المعجزة إلى عِظَم حجم ما يأتي به النبي، ولا إلى فخامة منظره، وإنّما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجًا عن مجاري العادات، ناقضًا لها"[٦].

"والمعجزات إمَّا حسية، وإمَّا عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية؛ ولأنّ هذه الشريعة

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري، مادة (عجز).

(٢) التعريفات، الشريف الجرجاني، (بيروت، دار الكتب العلمية،)، ط:١، ص٣٥.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، (بيروت، دار المعرفة)، (د.ت)، (٢/ ١١٦).

(٤) المقدمة، ابن خلدون، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، ص٩٠.

(٥) مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، الدكتور/ أحمد جمال العمري، (دار المعارف)، ص٢٩.

(٦) بيان إعجاز القرآن، للخطابي، (دار المعارف، مصر)، (د.ت)، ص٢٣.

لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر"[١].

كما قال- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ما من الأنبياء نبي إلاَّ أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعًا)[٢].

قيل في معناه: "إنّ المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تُشاهد بالأبصار؛ كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزات القرآن تُشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأنّ الذي يُشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يُشاهد بعين العقل باق يُشاهده، كل من جاء بعد الأوَّل مستمراً"[٣].

"واختلاف المعجزات في أجيال الناس، هو ممَّا اقتضه دواعي الحكمة التي جاءت المعجزات من أجلها، وذلك أنّ الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم، وأمكنتهم، وإذا كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقيام الدليل على صحة دعواه، فكان لا بُدَّ أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم، وتتحداهم، آخذة بعقولهم، وقلوبهم لتقوم بها الحجة كاملة"[٤]، فهي تتنوّع حسب تنوّع الأمم المرسل إليهم في المواهب، والمعطيات، فتتناسب مع مستوى رقيّهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد إلى رقيق مرهف، ومن قريب مشهود إلى دقيق بعيد الآفاق، وهكذا كلّما تقدّمت الأمم في الثقافة، والحضارة فإن المعاجز المعروضة عليهم من قِبَل الأنبياء- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- ترقّ، وتلطف، وكانت آخر المعاجز رقّةً، ولطفًا هي أرقاها نمطًا، وأعلاها أسلوبًا، ألاَ وهي معجزة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (بيروت: دار المعرفة، د. ت)، (١/ ١٤٨- ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري من حديث الليث عن سعيد عن أبيه في كتاب الاعتصام، باب قول النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (بعثت بجوامع الكلم)، برقم (٧٢٧٤)، ومسلم، في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، برقم (٢٣٩).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، تحقيق: عبدالعزيز بن باز، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، (٩/ ٨).

(٤) الإعجاز في دراسات السابقين، عبدالكريم الخطيب، (بيروت، دار الفكر)، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م، ص٨٩.

الإسلام الخالدة، عُرِضَت على البشرية جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت وتصاعدت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الإسلام(١).

وممَّا تقدّم يتبيّن لنا معنى الإعجاز، والمعجزة بمفهومهما العام، أمَّا إعجاز القرآن الكريم بمضمونه الخاص فمعناه: "عجزُ الناس عن أن يأتوا بمثله، فكلمة (إعجاز) مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله، فكان التقدير: أعجزَ القرآنُ الناسَ أن يأتوا بمثله".

يقول القاضي عبدالجبار: "فمعنى قولنا في القرآن أنّه معجز: أنّه يتعذّر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختص به"(٢).

والقرآن الكريم معجزة الرسول- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الباقية الخالدة، بمعنى أنّ العجز عن محاكاتها، الإتيان بمثلها دائم مستمر في كلّ زمان، ومكان، بالإضافة إلى المعجزات الحسية الأخرى التي أُيِّدَ بها خاتم الأنبياء، وغيره من الأنبياء، والرسل.

فـ"براعة الإعجاز تتجلَّى في ملاءمة قضية الإعجاز لكل نبي بما يلائم عصره، وينسجم مع فنون جيله"(٣).

ولا يتحقّق (الإعجاز)؛ أي: إثبات العجز للغير إلاَّ إذا توافرت أمور ثلاثة هي:

١- التحدّي: وهو طلب المباراة، والمنازلة، والمعارضة.

٢- أن يوجد المقتضى الذي يدفع المتحدّي إلى المباراة، والمنازلة، والمعارضة.

٣- أن يَنتفِ المانع الذي يمنعه من هذه المباراة، والمعارضة(٤).

(١) تلخيص التمهيد لمحمد هادي معرفة: (٢/ ١٢).

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبدالجبار، (بيروت، دار الكتب العلمية)، (١٦/ ٢٢٦).

(٣) نظرات معاصرة في القرآن الكريم، محمد حسين الصغير، (بيروت، دار المؤرخ العربي)، ص١٠.

(٤) الوسيط في أصول الفقه الإسلامي، الدكتور/ وهبة الزحيلي، (دمشق، المطبعة العلمية) ص٢٢١.

مفهوم وجوه الإعجاز:

لم ينقل عن العلماء تعريفٌ محدّدٌ لمفهوم (وجوه الإعجاز)، إلاَّ أنهم نظروا إليها بشكلٍ شمولي عام، يدخل تحته مجموع القضايا التي ورد بها التحدي للثقلين، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها.

فـ"المقصود بوجوه الإعجاز: الأمور التي اشتمل عليها القرآن، وهي تدلُّ على أنه من عند الله، وما كان في استطاعة أحدٍ أن يأتي بمثله، وما كان في استطاعة الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله"(١).

فالوجه الإعجازي يمثل قاعدة عامة يندرج تحته أكثر من أمر معجز تجمعها وحدة موضوعية تتسق في أفرادها.

*****

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه، محمد أبو زهرة، (القاهرة، دار العروبة)، ١٩٦١م، ص٨٦.

المبحث الثاني

نشأة مصطلح الإعجاز

إن مصطلح الإعجاز لم يُذكر في القرآن الكريم، ولم يتميّز في عصر النبوّة والصحابة، وإن كان معناه قائمًا معروفًا، فقد روى البخاري أن النبيّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (ما من الأنبياء نبي إلاَّ أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[١]؛ "أي: أنّ معجزتي التي تحديت بها، الوحي الذي أنزل عليّ وهو القرآن؛ لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح"[٢].

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[٣].

وفي هذا دلالة واضحة إلى أنَّ آية النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- التي تقوم مقام آيات السابقين من الأنبياء- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- ومعجزاتهم هي القرآن الكريم.

قال القرطبي: "أي: لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز"[٤]، ومع عدم ذكر مصطلح (إعجاز القرآن) في الآيات القرآنية، إلاَّ أنّ لفظة (عجز) ومشتقاتها قد ذكرت في القرآن بنحو (٢٦) مرة[٥].

---

(١) رواه البخاري، في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأوَّل ما نزل، برقم (٤٦٩٦).

(٢) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (بيروت، دار المعرفة)، ١٣٧٩هـ، (٩/ ٦).

(٣) سورة العنكبوت: الآيات (٥٠- ٥١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ١٤١٣هـ.

(٥) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي، (القاهرة، دار الحديث)، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص٥٤٨.

وقد وردت في القرآن الكريم ألفاظٌ متضمنة معنى المعجزة، وذلك نحو: (آية، بينة، برهان)، و"لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسُنَّة، وإنما فيه لفظ الآية، والبينة، والبرهان، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، في العصا واليد"[2].

والإحساس بروعة هذا القرآن، وسطوته، وإعجازه بدأ مع تنزله، وسماع العرب له، ونقرأ نصًا لبليغ من كبرائهم يجسّد فيه ما راعه من هذا الوحي العظيم بوصف ترجم فيه عجزه، وعجز قومه على أن يأتوا بمثله، قال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه[3].

إن هذا الوصف الرائع، وهذا الحكم المحكم من رجل بوزن الوليد بن المغيرة، يمكن للباحثين أن يعدوه بذرة أولى في تاريخ الإعجاز؛ لأنه صدر بعد تأمل، وتدبر، وتقليب رأي، وإمعان نظر في لفظ القرآن، ومعناه، ومقارنته بغيره ممَّا ألفه الناس من أنماط التعبير المختلفة شعراً، ونثراً فلم يجد في كلامهم ما يشبه ما سمعه، أو يقاربه (ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن).

أمَّا الإعجاز كمصطلح فلم يبرز على الساحة العلمية إلاَّ بعد أن تجرأ الجعد بن درهم (ت١٢٤هـ)، وكان شيطانًا، خبيث المذهب، تلقى مذهبه عن أبان بن سمعان عن رجل من أبناء اليهود يُقال له "طالوت" حتى قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا[4].

---

(١) سورة القصص: الآية (٣٢).

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي حسن ناصر، (الرياض، دار العاصمة)، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، (٥/ ٤١٢).

(٣) أخرج القصة البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن عباس، في باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله من الإعجاز، (٢/ ١٩٨- ١٩٩).

(٤) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: الدكتور/ أحمد أبو ملحم، الدكتور/ علي نجيب عطوي، فواز السيّد، مهدي ناصر الدين، علي عبدالستار، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، (٩/ ٣٦٤)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (بيروت، مؤسسة الرسالة)، الطبعة العاشرة، ١٤١٤هـ، (٥/ ٤٣٣).

وهذا الكلام خطير جداً، وفيه ردٌّ، وتكذيب لآيات نصَّت على ذلك، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾[٢]، ومن هذا اعتقاده ليس بمستغرب عليه أن يقول: "إن فصاحة القرآن غير معجزة، وإن الناس قادرون على مثلها، وأحسن منها"[٣].

وإلاَّ بعد أن نقل عن واصل بن عطاء منشئ المذهب الاعتزالي (ت١٣١هـ)[٤] قوله: إن إعجاز القرآن ليس بشيء ذاتي فيه، وإنما هو بصرف الله تفكير الناس عن معارضته، وهو القول الذي تبناه فيما بعد النظام (ت٢٣١هـ)[٥] أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعرف هذا القول فيما بعد بـ(الصرفة).

عند ذلك بدأ العلماء يتعرضون في كتبهم لوجه الإعجاز، ويتحدّثون عن إعجاز القرآن[٦]. وأوَّل من عرف أنّه تصدّى للكلام في الإعجاز في نظم القرآن هو الجاحظ (ت٢٥٥هـ)[٧]، تلميذ النظام الذي أنكر عليه قوله، وعاب منهجه الذي أدّى به أن يظن الظنّ، ثم يجعله أصلاً يجري عليه القياس، مصححًا

(١) سورة النساء: الآية (١٦٤).

(٢) سورة النساء: الآية (١٢٥).

(٣) انظر: الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي، ترجمة: عبدالصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر)، ١٤٠٢هـ، في مقدمة محمود شاكر ص٤٢.

(٤) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (بيروت، دار المعرفة)، (د. ت)، (١/ ٤٦)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، (بيروت، دار المعرفة)، (د. ت)، (٤/ ٣٢٩)، والإعلام لخير الدين الزركلي، (بيروت، دار العلم للملايين)، الطبعة الثالثة، (٩/ ١٢١ - ١٢٢).

(٥) انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، (بيروت، دار الكتب العلمية)، (د. ت)، (٦/ ٩٧)، ولسان الميزان، لابن حجر العسقلاني (١/ ٦٧).

(٦) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، الدكتور/ مصطفى مسلم، (جدة، دار المنارة)، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ص٤٠.

(٧) انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق: الدكتور/ إحسان عبَّاس، (بيروت، دار صادر)، (د. ت)، (٣/ ١٤٠).

لقياسه بالمنطق، والعيب في أصل القول الذي بنى عليه، لا في الأقيسة التي أجرى بها مشابهاته"[١].

والجاحظ إلى جانب تناوله موضوع إعجاز القرآن في إشارات مقتضبة في بعض كتبه؛ كالحيوان، والبيان والتبيين، فإنّه يفيد أنّ له كتابًا سمّاه (نظم القرآن)، يقول عنه: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن؛ ليعرف بها ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد، والفضول، والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة، والألفاظ القليلة، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[٢].

وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا[٣]، وهذا الكتاب لم يصل إلينا[٤]، ولكنه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الإعجاز فيه من خلال الإشارة إليه في كتاباته، وممّا يثبت تأليفه لهذا الكتاب إشارة بعضهم إليه من خلال كتاباتهم؛ كالباقلاني[٥]، وغيره[٦].

"وكل ما قيل في الإعجاز من (النظام)، أو (الجاحظ) لا يمثل دراسة موضوعية للإعجاز، وإنما هو أشبه بالخطرات العارضة لا يقف عندها أصحابها وقوفًا طويلاً، ولا يتوفرون عليها زمنًا يتاح لهم فيه

(١) انظر: المعجزة الكبرى للقرآن، لمحمد أبو زهرة، مصر، (دار الفكر العربي)، (د. ت)، ص٧٥.

(٢) سورة الواقعة: الآية (١٩).

(٣) الحيوان للجاحظ (٣/ ٨٦).

(٤) انظر: الجاحظ في حياته، وأدبه، وفكره، الدكتور/ جميل جبر، (بيروت، الشركة العالمية للكتاب)، (د. ت) ص٦٩، والإعجاز في دراسات السابقين ص١٨١.

(٥) ذكره في موضعين من كتابه إعجاز القرآن: أ- قال: وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابًا، انظر: ص١٢، ب- وقال في موضعٍ آخر: فانظر في كتبه في (نظم القرآن)، انظر: ص٢٢٧.

(٦) انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ١٤١٣هـ، (٢/ ١٩٦٤)، والكشاف، للزمخشري، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، (١/ ٧)، والفهرست، لابن النديم، تحقيق: الدكتور/ علي يوسف طويل، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ص٢٩٤.

الإحاطة بها من جميع جهاتها"[١].

وجاء بعد الجاحظ محمد بن يزيد الواسطي (ت٣٠٦هـ)[٢]؛ ليؤلف كتابه (إعجاز القرآن)، ويعتبر أوَّل كتاب مستقل يؤلف في الإعجاز، وهذا الكتاب يُعد أصلاً بُني عليه، فقد شرحه عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)[٣] شرحًا مطولاً، وأودع ذلك الشرح كتابًا سمَّاه المعتضد، وله شرح آخر أصغر منه[٤]، إلاَّ أن هذين الشرحين مع الكتاب المشروح لم يصل إلينا منها شيء[٥]، وثمّة كتاب رائع ذائع لعبد القاهر الجرجاني أسماه بـ(دلائل الإعجاز)، استفاد فيه من الجاحظ، ونهج في كتابته نهجًا فريداً لم يسبق إليه، وذلك حين (وجّه عبد القاهر إلى قصور دراسات السابقين في توضيح طريقة العرب في فهم البيان القرآني، ولذا لم يرتض الوسائل التي جعلوها من وجوه الإعجاز القرآني، إذ تتخلف في ناحية من القرآن، وتصدق في أخرى، ولذا حاول جاهداً أن يقدم طريقة تتمثّل في القرآن كله، وسماها بـ(النظم)، وجل همّه أن يقدم وسيلة، وطريقة تُحتذى[٦].

وفي كتابه أورد عبد القاهر مائة وستًا وستين آية في خمس وأربعين سورة، ولم يغفل عبد القاهر في (الرسالة الشافية)، و(أسرار البلاغة) منهجه السابق، فقد تحدّث في (الرسالة الشافية) عن ثمان آيات من خمس سور، وفي (الأسرار) تحدّث عن تسع وثلاثين آية من خمس وعشرين سورة، وكلها يتضح فيها تفسيره للوسيلة، والاهتمام بها[٧].

---

(١) الإعجاز في دراسات السابقين ص١٨١.

(٢) انظر: كشف الظنون (١/ ١٢٠).

(٣) انظر: فوات الوفيات، للكتبي، تحقيق: الدكتور/ إحسان عبَّاس، (بيروت، دار صادر)، (د. ت)، (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٤) انظر: كشف الظنون (١/ ١٢٠).

(٥) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ص٤٢.

(٦) معالم المنهج البلاغي عند القاهر الجرجاني، الدكتور/ محمد بركات حمدي أبو علي، (عمان، دار الفكر)، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ص١٤.

(٧) انظر: المرجع السابق ص١٥- ١٨.

ولعلَّ الزمخشري خير من ترجم كلام عبد القاهر، وجسَّد نظراته، وأفكاره البلاغية عملاً فذّاً اعتال عليه كثير ممّن كتبوا بعده، وتوالت في عصر عبد القاهر وقبله بقليل مؤلفات خاصة بإعجاز القرآن، وبسط وجوه الإعجاز فيه، ولعلَّ أوَّل رسالة خاصة بإعجاز القرآن من أحد متكلمي المعتزلة هي (رسالة النكت في إعجاز القرآن)(١) لأبي الحسن الرماني (ت٣٨٤هـ)(٢)، ويرى الخطيب أنّ أوَّل رسالة هي (بيان إعجاز القرآن)(٣) للخطابي (ت٣٨٨هـ)(٤).

وألَّف بعدهما أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣ هـ)(٥) كتابًا سمَّاه (إعجاز القرآن)، ويعتبر من أوسع الكتب المؤلَّفة في هذا الباب، وقد حداه إلى تأليفه (خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين)(٦).

قال: "وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله- أي القرآن- ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه، وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر، وقد سبقهم إلى ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم... وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهَّال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة، فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله- عز عَزَّوَجَلَّ-، ومتوكلين عليه وعلى حسن

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ص٤٣.

(٢) انظر: العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السيد بن بسيوني زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، (٢/ ١٦٤).

(٣) انظر: الإعجاز في دراسات السابقين ص١٨٢.

(٤) انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، (بيروت، دار الكتب العلمية)، (د. ت)، (٣/ ١٢٨)، والعبر في خبر من غبر (٢/ ١٧٤).

(٥) انظر: العبر في خبر من غبر (٢/ ٢٠٧).

(٦) إعجاز القرآن ص٢٠.

توفيقه، ومعونته"[١].

وألَّف القاضي عبدالجبار (ت٤١٥هـ)[٢] المغني في أبواب التوحيد والعدل، وجعل الجزء السادس عشر خاصاً بإعجاز القرآن، وله فيه لفتات رائعة في نظم القرآن، لكنه لم يصرّح به، ويجعله نظرية يُقيم عليها كتابه، كما هو الحال عند عبد القاهر الجرجاني الذي أفاد من لفتات القاضي عبدالجبار.

وتتالت بعدها المؤلفات على يد حازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، والسكاكي، وأبو حيان التوحيدي، والرازي وغيرهم من العلماء الذين كتبوا، ولعلّهم إلى الجمع أقرب منهم للإبداع؛ كالزركشي، والسيوطي.

(١) المصدر السابق ص٢٠- ٢١.

(٢) انظر: معجم المؤلفين، لعمر رضا كحَّالة، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، (د. ت)، (٥/ ٧٨).

المبحث الثالث

وجوه إعجاز القرآن

إنّ قضية الإعجاز القرآني من القضايا العلمية والدينية الهامة، التي شغلت الفكر الإسلامي على مرّ العصور، ولا زالت تشغله حتى عصرنا الحاضر، وقد تدارسها كثير من العلماء، لغويّون، ومتكلّمون، ومفسّرون، وكان لكل منهم رأي، ووجهة نظر، بحسب ثقافته، ومنهجه، ودرجة فهمه، فأفردوا لذلك البحوث، والرسائل، والكتب، وتعمقوا في دراسة القرآن الكريم دراسةً تحليلية دلالية شاملة؛ من أجل الوصول إلى تحديد مفهوم إعجاز القرآن الكريم، وبيان الوجه المعتبر فيه، ومع الإجماع على أن القرآن هو معجزة الرسول- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وأنّ الإعجاز وقع به، وتسليم قريش والعرب جميعًا بالعجز في حينه، فإنّ الوقوف على الجهة التي كان منها الإعجاز القرآني لم تلتق عندها الآراء، وكانت محل اختلاف كبير بين الباحثين، والناظرين في وجوه الإعجاز في كل زمان ومكان، فهناك أكثر من رأي، وأكثر من مذهب في الجهة، أو الجهات التي كان بها القرآن معجزاً ممَّا حدا بالإمام الخطابي أن يُصوِّر لنا هذه الظاهرة بقوله: "قد أكثرَ الناس الكلام في هذا الباب قديمًا وحديثًا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدروا عن رِي؛ وذلك لتعذّر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته[1].

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن المُحققين من علماء المسلمين- في القديم والحديث- متفقون على إثبات وجه الإعجاز (اللغوي البياني) العائد إلى علو درجة بلاغة نظم القرآن الكريم، لكنهم اختلفوا في الوجوه الإعجازية الأخرى.

فالخطابي نفسه نراه يذكر أربعة أوجه، هي: موقف العرب السلبي من التحدي، وسمَّاه الرماني ترك المعارضة والصرفة، وتضمنه للأخبار الغيبية، ومن جهة بلاغته، وأطال النفس في هذا الوجه[2].

وقال الرماني: "وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي، وشدّة

---

(١) بيان إعجاز القرآن ص٢١.

(٢) انظر: ثلاث رسـائل في إعجاز القرآن، للرماني، والخطابي، والجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، (مصر، دار المعارف)، (د. ت)، ص١٩- ٢١.

الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة"(١).

وقال الباقلاني: "ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز، وهي تضمنه الإخبار عن الغيوب، والإخبار عن الأحوال الماضية من لدن آدم حتَّى مبعثه مع أميته- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والوجه الثالث: أنه بديع النظم، وعجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"(٢).

وأجملها القرطبي في مقدمة تفسيره، فقال: "وجوه الإعجاز عشرة، منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها، ومنها الأسلوب المخالف لجميع الأساليب، ومنها الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، ومنها التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتَّى يقع الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة، وحرف موضعه، ومنها الإخبار عن الأمور التي تقدّمت في أوَّل الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب، ومنها الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان في كل ما وعد الله سبحانه، ومنها الإخبار بالغيبيات التي لا يطلع عليها إلاَّ بالوحي، ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام، ومنها الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها، وشرفها عن آدمي، ومنها التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطنًا من غير اختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾(٣).

وعندما ننعم النظر في هذه الوجوه العشرة فإننا نراها ترجع إلى معلمين رئيسين:

أولاً: ما يتعلّق بالمنهاج البياني، وهذا النوع من الإعجاز أوَّل من يخاطب به العرب؛ لأنّهم بثقافتهم اللسانية، وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس إدراكًا لمعنى الإعجاز في القرآن من ناحية بيانه، ونغمه، وجزالته، وكذلك كان الأمر منهم، وكانوا هم المخاطبين أولاً به، وبعجزهم قام البرهان الأوَّل.

ثانيًا: الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين، ولأخبار مستقبلة وقعت كما ذكر،

(١) المصدر نفسه ص٦٩.

(٢) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني ص٥١- ٥٣.

(٣) سورة النساء: الآية (٨٢).

واشتماله على علوم كونية، وحقائق لم تكن معروفة في عصر محمد- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وقد أتى بها القرآن، وتقرّرت حقائقها من بعد، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنساني أنّها أصلح من غيرها، وأنّها وحدها العادلة، وأنّ هذا النوع معجزة للأجيال كلها(١).

وهذان المعلمان لا يكاد أحد من المحدثين أن يخرج من سياقها، وإن حاول البعض أن يبسط القول في بعضها، أو أن يفرّع من الوجه وجوهًا هي محل أخذ ورد بين الباحثين؛ كالإعجاز العلمي، والعددي، والنفسي، والإصلاحي التهذيبي الاجتماعي، وغيرها ممَّا تحفل به بحوث المهتمين، وكتبهم، وفي هذا دلالة على حقيقة الإعجاز التي تتجلَّى في موضوعٍ باهر قاهر، وإنسان عاجز قاصر، وكل الذين طوّفوا بإعجاز القرآن قديمًا وحديثًا، كانوا يراوحون على أعتاب هذه الحقيقة، ويتلمسون لمحة هنا، وكشفًا هناك وهم بين مأجور، ومغفور.

وليس القصد هنا الرد على شطحات المستعجلين، أو ترجيح رأيًا من الرأيين، وإنما التنبيه على بعض الأصول التي تدل على الوصول، وتسلك بالباحث طريقًا هو أدعى للقبول.

وبعد هذا العرض الموجز لمعنى المعجزة، والإعجاز، ونشأة الإعجاز، ووجوه إعجازه دون الخوض في تفاصيلها، إذ القصد تأصيل القول بالإعجاز، ووجوهه من خلال نقاط يحاول الباحث فيها التنبيه على مغالطات، أو استعجال، أو انتصار لرأي، وتسفيه آخر، ولعلَّ النقاط التالية تنبه غافلاً، وتعدل مائلاً، وتجيب سائلاً.

أولاً: الإعجاز ليس مقصوداً لذاته، وإنما المقصود لازمه:

القرآن هو الكتاب الوحيد من الكتب التي أنزلت على الرسل، وقُصد به الإعجاز، لكن هذه الحكمة الخاصة بالقرآن حريٌّ بطالب العلم، والباحث ألا تصرفه هذه الحكمة عن القصد الأسمى من تنزل القرآن، فالإعجاز غير مقصود من الإنزال، وإنما المقصود منه التدبر، والتذكر، وبيان الأحكام، والإعجاز تابع لازم(٢).

(١) انظر: المعجزة الكبرى للقرآن ص٨٤.

(٢) انظر: حاشية العطار على شرح الجلال المحلَّى على جمع الجوامع، (بيروت، دار الكتب العلمية)، (د. ت)، (١/ ٤٠٣).

وليت بعض الباحثين تنبّه لهذا المقصد؛ كي يوفر على نفسه عناء السبق إلى وجه لم يسبق إليه، فنراه يجتزئ من الوجه الإعجازي عدّة أوجه، وهذا فيه تكلّف، وتشظٍ، كما نرى في بعض مؤلفات المحدثين ككتاب: "إعجاز الكلمة في القرآن وجه غير مسبوق في إعجاز الكلمة المفردة"[١]، فليس السبق يقصد لذاته عند المحققين، وليس السبق يحدّده من كتب فيه، وإلاّ لادعى الكلّ وصلاً بليلى.

إنه حين غاب الهدف الأسمى من تنزل القرآن رأينا كمّاً من المغالطات، والشطحات التي جانب فيها قائلوها الصواب.

لقد أصبح القرآن الكريم منذ زمن غير قصير مجالاً لاستعراض النظريات العلمية، ومرجعًا في تفسير الظواهر الكونية، وغلا قوم في ذلك حتَّى قالوا: إن القرآن مصدر لجوامع الطب، وضوابط الفلك، وقوانين الهندسة، ونظريات الكيمياء، وهلم جراً، بل وحملوا الآيات القرآنية على كل مستحدث في مضمار العلم، ومخترع في دنيا الحضارة، وحاديهم إلى ذلك إثبات الإعجاز القرآني، ومدارجة الكشوف العلمية، وربما تستر باعث الانبهار بفتوحات العلم التجريبي وراء هذا المقصد، أو ذاك، إذ لها هالة مضيئة تحمل المبهورين والمنبهرين على التماس الموافقات بين القرآن والعلم، ولو ذهب التفسير في ذلك مذهب التكلف الضيّق، والشطح البعيد!، وما أغنى قرآننا أن يفخر بمطابقةٍ لعلمٍ، أو موافقة لاختراع، وهو الذي نزل من فوق سبع سماواتٍ رحمةً للناس، وعافيةً، وهُدىً[٢].

إن هداية القرآن للبشر لا يحتاج إلى مزيدٍ من الأوجه التي تفتقر إلى مستندٍ قوي تتكئ عليه يربطها بالإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم، ولم تخضع لضوابط منهجية حين الاستنباط، والاستدلال.

إن الكم الهائل من الذين دخلوا في دين الله أفواجًا، ممَّن لا يعرفون اللغة العربية ولم يسمعوا بهذه الأوجه الإعجازية التي تتوالد (كالعددي، والطبي، والروحي، والغذائي...الخ).

إن فقه المقصد من الإعجاز يقود إلى إثبات أن القرآن كلام الله أنزله على رسوله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هداية للعالمين، لا يحتاج إلى هذا الكم ممَّا يُدّعي أنها وجوه إعجاز.

---

(١) لحسام البيطار.

(٢) النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، الدكتور/ قطب الريسوني، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، ص١٩٧.

ثانياً: القرآن معجز بنفسه:

حين نتأمل هذا القرآن العظيم نصاب بالحيرة، ونتساءل كيف يخضع له إبّان تنزله العربي القحّ، وبعد تنزله بقرون الأعجمي الذي لا يفصح؟ وما ذاك إلاّ لشيء كامن فيه، ووصف ذاتي منبعث منه، وهذا ما أشار إليه الخطابي بقوله: "وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه، وأسبابه النابتة منه، فلم نجد شيئًا منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس، ويطرد على المعايير، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوبًا من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه"(١).

ويرى ابن خلدون "أن أعظم المعجزات، وأشرفها، وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزّل على نبيّنا محمد- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، والخارق المعجز، فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة؛ لاتحاد الدليل، والمدلول فيه، وهذا معنى قوله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ما من نبي من الأنبياء إلاّ وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحى إليّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة). يُشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح، وقوّة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر؛ لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع(٢).

وهذه الإشارة الذكيّة التي استقاها ابن خلدون من الحديث الشريف، وأن أعظم المعجزات هو الوحي ذاته، وارتباطه بالرسالة، وتبعية المدعوين لهذا الوحي، وتأثيره فيهم، وهذا الملمح الجميل نقرأه في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾(٣).

---

(١) بيان إعجاز القرآن ص٢٦.

(٢) انظر: مقدمة تاريخ ابن خلدون: ١٣٧.

(٣) سورة العنكبوت: الآيات (٥٠- ٥١).

فالآيات السابقة تخبرنا أن الكفار طلبوا تنزل الآيات، فأنزل الله هذا الوحي المعجز، ولكنهم تعنتوا، وطلبوا معجزات حسيَّة كالتي سمعوا عنها من رسل سابقين، حتَّى هذه الآيات التي يقرؤونها طلبوا أن تنزل في كتاب من السماء يرونه!.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

إن هذه المكابرة التي دفعتهم إلى أن يطلبوا من الرسول خوارق مادية؛ كتفجير الينابيع، أو يكون له بيت من زخرف، بل بالغوا في مكابرتهم، وطلبوا من الرسول أن يرقى أمامهم، وينزل لهم كتاباً يقرؤونه، بل وصل بهم العنت مداه حين طلبوا أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلاً؟!.

ومع كل هذه الطلبات المادية الساذجة التي يغطون بها هروبهم من الحقيقة التي تمتلئ بها نفوسهم من تأثير هذا القرآن المعجز بذاته عليهم، نراهم في السورة نفسها ينطقون عاجزين: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾[2].

وهذه الكلمة ذاتها تحمل في ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن؛ فهم يستكثرون في دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر؛ لأنهم يحسون فيه شيئًا غير بشري، ويحسون دبيبه الخفي في مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر، يرجعون إليه هذه الغرابة في قوله، وهذا التميّز في حديثه، وهذا التفوّق في نظمه. فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه، إنما ينطق عن السحر بقوّة غير قوّة البشر!، ولو أنصفوا لقالوا: إنه من عند الله، فما يمكن أن يقول هذا إنسان، ولا خلق آخر من خلق الله[3].

---

(١) سورة الإسراء: الآيات (٨٩- ٩٣).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٤٧).

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٣٢).

فهذا الوحي إعجازه منه وفيه، لا يحتاج لشيء خارج عنه يدلل عليه.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (١).

قال ابن عاشور: "وهذه الآية مفحمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن"(٢).

لقد فوجئوا بهذه الآيات، وقد مثلت في صورة لا عهد لهم بها، ولا طاقة لهم في محاذاتها، وكأن اللغة ليست لغتهم، وكأن البيان ليس بيانهم، مع أن القرآن عمد إلى أسهل ألفاظه، وأكثرها انتشاراً في حديثهم، وما فواتح السور إلاَّ توبيخًا للمتكبرين المعرضين، وكأن القرآن يقول لهم: إنني لا أتحداكم بأصعب لغتكم، أو أغربها، بل أتحداكم بأيسرها، وأكثرها انتشاراً على ألسنتكم، وهو يكرِّر هذه الحروف على أسماعهم في الفواتح؛ ليتكرَّر إحساسهم بالعجز.

ثالثاً: القرآن تُستمد منه القواعد ولا يخضع لقاعدة:

حين تتأمل في القرآن، وأوجه إعجازه، وجهود العلماء والباحثين قديمًا وحديثًا ترى غفلة عند أكثرهم حين يأخذهم الفن الذي برزوا فيه، ويشرعون في تطبيق القواعد التي قعدت على كلام بشري ليحاكموا بها نصّـًا منـزلاً من السماء!.

إن القرآن نسيج وحده خارج عن تأطيره بأي قاعدة أحدثتها عقول بشرية تقف عاجزة عن الإحاطة بأي علم من العلوم البشرية، فكيف بكتاب أنزله العلاَّم العليم الذي يخلو خلوّاً تامًا من خصائص البيان البشري الذي يخضع لطبائع النفس، وطاقتها، وحدود وسعها، فهذه الطاقة تتحدَّد دائمًا في مجالات تقف عندها، وفي هذه المجالات تتجلَّى كفاءة النفس، وقدرتها على ممارسة هذا الشيء الذي هو ميدانها، فإذا ما جاوزته إلى غيره لم تتهيأ له، ولم تبدع فيه، وضعفت، وتخلخلت، وانقطعت.

إن أكبر مغالطة يقع فيها الباحثون في الإعجاز القرآني حين يعمدون إلى قواعد في مجال العلوم الإنسانية، ويُحاولون تطبيقها على النص القرآني دون تكييفها لمنطق النص، وهديه.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٨).

(٢) التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، نسخة مصورة عن الدار التونسية للنشر، (١٥/ ٢٠٣).

إن اطلاع أي باحث على قاعدة انتظمت مفردات العرب وأبياتهم يرى دقّة هذه القاعدة في تطبيقها على ما يقرأ من كلام الناس، فإذا نظر في القرآن رأى عجبًا، ونقرب ذلك بمثالٍ يجسّد ذاك البون الشاسع بين كلامين، والقاعدة واحدة!.

فمن فصاحة الكلام عدم تكرار الحروف، وكراهية توالي الأمثال.

قال ابن الأثير: "اعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثيرٍ من كلامهم... ولشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفًا آخر غيره، فقالوا: أمليت الكتاب، والأصل: أمللت، فأبدلوا اللام ياءً؛ طلبًا للخفة، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة، فما بالك بالألفاظ الكثيرة"(١).

ويعلّل المحدثون لهذه القاعدة، وكراهة توالي الحروف المتماثلة بصعوبة نطق الحروف، وتنافرها... يعني الإلحاح على مجموعة معينة من العضلات دون سواها؛ لإخراج أصوات اللفظة المطلوبة، وهذا يُؤدي إلى الإحساس بالتعب؛ وذلك أنَّ للحروف ستة عشر مخرجًا، فإذا كانت الكلمة مؤلفة من حروف متقاربة المخارج كان الناطق بها بمنزلة من يمشي وهو مقيّد، وإذا كانت الكلمة مؤلفة من حروف متباعدة المخارج كان الناطق بها بمنزلة الواثب من مكانٍ إلى مكان، واستكراه هذين التركيبين يظهر بثقلهما على اللسان، وبشاعتهما في السمع، وإنما يحسن التأليف إذا كان من حروف معتدلة ليست بذات بعدٍ بعيدٍ ولا قربٍ قريب(٢).

لكن القرآن تجده يروعك حين يستعمل نسقًا فيه تباعد الحروف ذات المخرج الواحد، ويروعك أكثر وهو يستعمل عدّة حروف متتابعة من مخرج واحد كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾(٣)، فكم تكرّر حرف الميم في هذه الآية؟

بل إن قوله سبحانه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ تضمنت هذه الجملة من الميمات، والميمات

(١) المثل السائر (١/ ٤٠٣).

(٢) انظر: أثر النحاة في البحث البلاغي، لحسين عبدالقادر، (مصر، دار النهضة)، (د. ت)، ص٢٥٩.

(٣) سورة هود: الآية (٤٨).

المتولدة من الإدغام والغنة ثماني ميمات تكرّرت ليس بينها فاصل، وعند قراءتها، أو سماعها لا تحس فيها كراهةً، ولا ثقلاً، إنه القرآن الذي حوّل تلك الكراهة في توالي المتماثلات إلى سلاسة، والثقل إلى خفة وعذوبة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1]. تكرَّر حرف القاف عشر مرات، ولا يكاد القارئ يشعر بتوالي هذا الحرف مع شدته، وقلقلته، وجهره، واستعلائه، بل بسهولة النطق، وسلاسة الألفاظ.

وهكذا نرى العلماء يجتهدون في رصف قاعدة تنتظم أمثلة تتسق مع ما ذهبوا إليه، ثم يأتي القرآن بنظمه بخلاف ما قالوا، وبجمال يتطاول على قواعد المقعدين!.

رابعاً: الإعجاز القرآني بين الإطلاق والتقييد:

النص القرآني مطلق، وهذا يتيح للمتأمل حركية المعنى غير المحدودة، فالألفاظ في النص القرآني ثابتة المبنى، بيد أن معناها متحرك مع حركة المعرفة للعقل البشري، وتطوّرها تبعًا لمدنيات العصور، وهذا يتيح للمتلقي أن ينقل ذهنيته بحسب تملكها للمعرفة إلى فضاء أوسع للمعاني، فكلما وصل إلى معنى يراه موافقًا للمراد القرآني يبقَ هناك معنى مبهم لم يتوصل إليه بعد، وكل هذا يحدث في نطاق إطلاق اللفظ، فالإطلاق يفتح نطاق التأويل، ويوسعه بما يوائم حاجة العصر.

وإنه لمن الإعجاز أن يبقى فهم المتلقي محدوداً أمام هذا النص المطلق، إذ لا محدودية لنطاق معنى النص البتة، وبهذا يكون المطلق الأداة التي تفسح المجال أمام تجدّد المعاني القرآنية، وتفجرها، إذ لا يتوقف عند فهم جيل من الأجيال في عصرٍ من العصور للنص القرآني وفق ضوابط أصولية لغوية بيانية تتناول أنماط الدلالة ذات الصلة على مختلف أنواعها[2].

وكما أن النص القرآني مطلق، فكذا الإعجاز القرآني أشمل، وأعم من أن يخضع لتأطير عقل بشري، وحصره في مجال إعجازي، يرى ذلك العقل القاصر قصوره على ما وصل إليه علمه القاصر!.

وحين ننادي بفتح باب الاجتهاد في ذلك، إنما هو استجابة لآيات التدبر، فلعلَّ متأخراً يفوق متقدّمًا،

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢٧).

(٢) انظر: الإطلاق والتقييد في النص القرآني للدكتور سيروان الجنابي (الأردن: الرضوان للنشر والتوزيع، ط/ ١، ٢٠١٠) ص٣٥٥.

إمَّا ببناء من أساس، أو أعلى فيه رأسًا بناه على أساس من سبقوه، وهو دأب المدققين، والمحققين الذين يدخلون إلى العلوم من أبواب سلكها قبلهم أئمة كبار، وهي مداخل صائبة؛ لإنماء العلوم، وبعثها، وإبداع المعرفة بعد استقصاء كلام أهل الفن، وطول النظر فيه، فالفكرة تبعث الفكرة، وطول المراجعة يفتح آفاقًا للملاحظة، وينسج خيوطًا محكمة لوجه إعجازي يتوارد عليه الباحثون درسًا، وتحليلاً.

وهذه الدعوة المطلقة للتأمل تقيد أولئك الدخلاء على هذا العلم الذين أولعوا بالكشف عن وجوه جديدة للإعجاز، وامتطوا مراكب التكلف، ولم يدركوا أن التكلف نتاج الضعف، وعدم التمكن، والاقتدار.

إن الذين يتكلفون لم يفطنوا إلى أن الإعجاز ليس مقصوداً لذاته، وإنما المقصود لازمه، ولذلك كان همهم على وجه إعجازي يظفرون به؛ وتحولت الوسيلة عند المتكلفين إلى غاية، والله سبحانه خاطب نبيّه، ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1].

فالله سبحانه الذي دعا للتأمل والتدبر في كتابه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[2] هو سبحانه الذي نهى عن التكلف.

قال مسروق: "أتينا عبدالله بن مسعود- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- فقال: يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله- عز عَزَّوَجَلَّ- قال لنبيّكم- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾"[3].

فالكشف عن وجه إعجازي ينهل من ورده الباحثون غاية في الجمال، والجلال، والتكلف في تصنع وجه إعجازي غاية في القبح، ونقص ينزه عنه كمال هذا الكتاب المحكم، فالقرآن لا يتعارض مع المسلمات الصحيحة التي وصل إليها الإنسان، ولا يناقض علمًا كونيًا أسسه العلمية صحيحة، لكنه لم ينزل القرآن ليكون كتابًا يتحدث إلى الناس عن نظريات كونية، ولن تكون هذه النظريات دلالة

(١) سورة ص: الآية (٨٦).

(٢) سورة النساء: الآية (٨٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧).

صدق للقرآن فننزل قدر القرآن، وعظمته، وجلاله، إلى علوم لا تعرف الثبات والقرار، فقد يصح اليوم في نظر العلم وما توفر له من أدوات ما يصبح غداً من الخرافات لتطور الوسائل في كل زمان، والقرآن ثابت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما تضمنه القرآن من إشارات إلى أسرار الخلق، وظواهر الطبيعة، إنما هو للحث على التدبر والتأمل، ودعوة للبحث والنظر ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1]، وهم أصحاب العقول النيرة المتفتحة الذين يحكمون القرآن في ما تصل إليه عقولهم، لا أن يحكموا على القرآن، ويطوعوه لما توصلوا إليه؟!، وكأن الشاطبي العالم الأصولي المدقق يقصد هؤلاء بقوله: "إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدّ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين، أو المتأخرين، من علوم الطبيعيات، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون، وأشباهها"[2].

خامساً: أوجه الإعجاز القرآني تتسق ولا تفترق:

القرآن معجز، وهذا محل اتفاق بين الباحثين، وأمَّا وجه الإعجاز فهو الذي وقع فيه الخلاف، وفرق واضح بين الإعجاز، ووجه الإعجاز، أمَّا أن وجه الإعجاز بلاغيًا، أو غيبيًا، أو تشريعيًا، أو علميًا، فذلك ممَّا وسع الله فيه على الأمة، ولهذا اختلفت فيه مقالتهم، واتسعت.

إن الآيات القرآنية كلها معجزة، وفي كل آية تجد أكثر من وجه إعجازي، منها الثابت اللازم؛ كالإعجاز البلاغي، ومنها المتغيّر؛ كالإخبار بالغيب، والمسائل العلمية، والتشريعات، والأحكام بفروعها، وهي تتسق ولا تفترق، وتتضافر ولا تتنافر وعلى الباحث أن يفرق بين رد الوجوه وإنكارها، وبين أن هذا الوجه الإعجازي أظهر من غيره، أو أسبق. فالآيات التي خاطبت كفار قريش أن يأتوا بمثل هذا القرآن قرائنه تتجه إلى التحدي ببلاغة القرآن، وتراكيبه، وتصريف القول فيه، وليس الإعجاز الغيبي، أو العلمي، أو التشريعي؛ لأنهم لا هم لهم بذلك، ولم يسجل لنا التاريخ لهم اهتمامًا، وعلمًا؛ كعلم

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

(٢) الموافقات للشاطبي، تحقيق: عبدالله دراز، (الرياض، مكتبة الرياض الحديثة)، (٢/ ٧٩).

الفصاحة والبلاغة...

وجُل من قالوا بالإعجاز رجّحوا الوجه البياني؛ لأنه ينتظم جميع آي القرآن، فالبيان والفصاحة في كل آية من سور القرآن، وهو قول قوي مبني على أساس متين، ولا أحد يمكنه رد هذا الوجه المعجز بحالٍ من الأحوال، لكن ربما غاب عن البعض أن نفوس المتلقين تختلف باختلاف ثقافاتهم، فالوجه البياني إعجازه ظاهر محكم عند من أتقن اللغة العربية، لكنه غير ذلك عند من لا يعرف أسرارها، وربما وجدنا وجهًا آخر يزلزل كيان من لا يعرف في العربية حرفًا، ويأخذ عليه وجدانه، ويقوده للإسلام بسبب إعجاز القرآن التأثيري، أو النفسي، وهو وجه قال به الخطابي، وسبق إليه، قال: "قلتُ في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلاَّ الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس"(١).

وأشار السكاكي إلى الذوق، وتأثيره على المتلقي، إذ يقول: "واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيبٌ، يدرك ولا يمكن وصفه؛ كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحَة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلاَّ"(٢).

فمن الحكمة أن نقدر للإعجاز التأثيري، والذوق قدره، كما هو الحال مع الوجه البياني، فالقرآن نزل للجميع على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وثقافتهم، إلى قيام الساعة، وكل يصدر عنه بما يوافق حاله، وهذا من عظمة القرآن وإعجازه.

فالسكاكي الذي كان أكبر همه أن يصب كل شيء في قاعدة، ويجمع كل ما تفرق في أصل، يقول بعد ما استوعب من سبقوه، ونفض دلائل عبد القاهر، وأسراره، (ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق).

إن إحالة الإعجاز من رجل عرف بالعقل والمنطق إلى الذوق إحالة إلى مبهم؛ لأن الإحالة إلى النفس، واعتماد الذوق وحده، هو في جوهره موقف حيرة، يلوذ به المتأمل حين لا يكون قادراً على أن يفصح عمَّا يجد، وهذا من دلائل الإعجاز التي جاء بها القرآن، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني ص٢٧.

(٢) مفتاح العلوم، للسكاكي بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ص٤١٦.

كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1].

إن حصر الإعجاز بوجهٍ من الوجوه، حري بإقفال باب التدبر، والتأمل الذي دعا الله إليه عباده إلى قيام الساعة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[2].

هذا النداء، وهذا الحث هو الذي جعل الجرجاني ينفق أيامه ولياليه حتى تتآلف لنا نظرية النظم، ويحاول المفسّرون الكبار بعده جعلها نصب أعينهم، يترسمونها منهاجًا للإجادة، والإفادة بدءاً من الزمخشري مُروراً بالرازي، والألوسي، وانتهاءً بالطاهر ابن عاشور.

وسيظل التدبر، والتأمل حاديًا لكل باحث أن يخرج لنا أحدهم بنظرية استلهمها من القرآن كل القرآن حين وهبه كل عقله، وكل جهده، ووقته، والقرآن لا يعطي أسراره إلاَّ لمن سبر أغواره.

سادساً: الاختلاف في وجه الإعجاز إعجاز:

إن اختلاف العلماء في الوجه المعجز لهو من الإعجاز، إذ هو فوق تصورات البشر، وما محاولاتهم إلاَّ إذعانًا لقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾[3]، وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[4]، ومقاربة بعضهم للوجه المعجز، وحشد الأدلة عليه، ما هو إلاَّ دلالة صدق لتيسير هذا القرآن لمن اقترب منه، وأجال نظره، وأعمل فكره فيه، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[5].

غير أن من يدرك وجهًا إعجازيًا هم قلة قليلة في كل جيل؛ لأن التناهي في معرفة أي علم أو فن لا يتأتى إلاَّ للإفراد من كل عصر، وأغلب من نقرأ لهم في الإعجاز جمعوا ما تفرق، أو اختصروا لما جمع، وهذا على جلالته لارتباطه بالقرآن، إلاَّ أنه لا يشبع جائعًا للمعرفة، ونقرأ نصًا جميلاً للباقلاني، يبيّن فيه أنه لا يدرك إعجاز القرآن إلاَّ المتناهي في معرفة صنوف الكلام، قال: "لا يعرف المتوسط من أهل اللسان

---

(١) سورة الزمر: الآية (٢٣).

(٢) سورة النساء: الآية (٨٢).

(٣) سورة محمد: الآية (٢٤).

(٤) سورة ص: الآية (٢٩).

(٥) سورة القمر: الآية (٢٢).

من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصَّنعة، فربما حل في ذلك محل الأعجمي في أن لا تتوجه عليه الحجة حتَّى يعرف عجز المتناهي في الصَّنعة عنه، وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب والرسائل وحدها من غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب، ووجوه الكلام، وطرق البراعة، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها، دون تحققه؛ لعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه.

فأمَّا من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه"[١].

ولربما وقف مشدوهًا في إعجازه، كما نرى ذلك عند السكاكي الذي كان شغوفًا في تقعيد القواعد، ولما جاء لإعجاز القرآن نراه يقف حائراً ويقول: "ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق".

إن هذا الاختلاف هو نظام العالم الذي تباينت فيه العقول، والأفهام ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾[٢]، ولو شاء الله لخلق العقول البشرية على إلهام متحد لا تعدوه، لكن حكمة الله اقتضت هذا النظام في العقل البشري؛ لأن ذلك أوفى بإقامة مراد الله من عباده، وكم أفدنا من هذا الاختلاف تأليفًا، وتدقيقًا، وإبداعًا، وتحقيقًا، والاختلاف في أوجه الإعجاز مخاض لذي لبّ يخرج لنا بوجه متفرد، أو نظرية جامعة.

*****

(١) إعجاز القرآن ص٢٥.

(٢) سورة هود: الآية (١١٨).

الخاتمة

وبعد:

فإننا بعد دراستنا للإعجاز، وأوجه الإعجاز، والشواهد التي سيقت في ذلك اتضحت من خلال البحث عدّة نتائج، ومن أبرزها:

١- أن الإعجاز ليس مقصوداً لذاته، وإنما المقصود لازمه من التدبر والهداية، وحين تنكب البعض هذه الحقيقة رأينا خلطًا من القول في الإعجاز، وتسرعًا في نسبة أوجه ليست منه.

٢- أن أعظم المعجزات هو الوحي ذاته، فالإعجاز كامن فيه، ووصف منبعث منه، فهذا الوحي إعجاز منه وفيه، لا يحتاج لشيء خارج عنه يدلل عليه.

٣- أن القرآن نسيج وحده، خارج عن تأطيره بأي قاعدة أحدثتها عقول بشرية محدودة، فالقرآن تستمد منه القواعد، ولا يخضع لقاعدة.

٤- أن النص القرآني مطلق، وهذا يتيح للمتأمل حركية المعنى غير المحدودة، وهذا حافز للعقول النيرة الخلاقة أن تبدع في اكتشاف أسراره وإعجازه.

٥- أن الدعوة المطلقة للتدبر وكشف الإعجاز، إنما هي لأولي الألباب المدققين المحققين، وليست للدخلاء المتسرعين المتكلفين، والتكلف نتاج ضعف وعدم تمكن.

٦- أن إدراك إعجاز القرآن والكشف عن أسراره لا يتأتى إلاَّ لقلة قليلة في كل جيل؛ لأن التناهي في معرفة أي علم أو فن لا يتأتى إلاَّ للأفراد من كل عصر.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، (بيروت، دار المعرفة)، (د.ت).
٣- أثر النحاة في البحث البلاغي، لحسين عبدالقادر، (مصر، دار النهضة)، (د. ت).
٤- أساس البلاغة للزمخشري (بيروت: دار صادر، ط/ ١، ١٤١٢هـ).
٥- الإطلاق والتقييد في النص القرآني للدكتور/ سيروان الجنابي (الأردن: الرضوان للنشر والتوزيع، ط/ ١، ٢٠١٠م).
٦- الإعجاز البلاغي، للدكتور/ محمد محمد أبو موسى، مصر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٧- إعجاز القرآن للباقلاني، (بيروت، عالم الكتب)، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٨- الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، (بيروت، دار الفكر)، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.
٩- الإعلام لخير الدين الزركلي، (بيروت، دار العلم للملايين)، الطبعة الثالثة.
١٠- البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: الدكتور/ أحمد أبو ملحم، الدكتور/ علي نجيب عطوي، فواز السيّد، مهدي ناصر الدين، علي عبد الستار، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
١١- بيان إعجاز القرآن، للخطابي، (دار المعارف، مصر)، (د.ت).
١٢- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، (بيروت، دار الكتب العلمية)، (د. ت).
١٣- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، نسخة مصورة عن الدار التونسية للنشر.
١٤- التعريفات، الشريف الجرجاني، (بيروت، دار الكتب العلمية،)، الطبعة الأولى
١٥- تفسير ابن كثير، ت/ حسين إبراهيم زهران (بيروت: دار الكتب العلمية، ط/ ١، ١٤١٥هـ).

١٦- ثلاث رسـائل في إعجاز القرآن، للرماني، والخطابي، والجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، (مصر، دار المعارف)، (د. ت).

١٧- الجاحظ في حياته، وأدبه، وفكره، الدكتور/ جميل جبر، (بيروت، الشـركة العالمية للكتاب)، (د. ت).

١٨- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ١٤١٣هـ.

١٩- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي حسن ناصر، (الرياض، دار العاصمة)، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٠- حاشـية العطار على شـرح الجلال المحلَّى على جمع الجوامع، (بيروت، دار الكتب العلمية)، (د. ت).

٢١- الحيوان للجاحظ، ت: عبدالسلام هارون (بيروت: دار الجيل، ١٤١٦هـ).

٢٢- سـير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شـعيب الأرناؤوط، (بيروت، مؤسـسـة الرسـالة)، الطبعة العاشرة، ١٤١٤هـ.

٢٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، (بيروت، دار الكتب العلمية)، (د. ت).

٢٤- شريعة القرآن من دلائل إعجازه، محمد أبو زهرة، (القاهرة، دار العروبة)، ١٩٦١م.

٢٥- الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي، ترجمة: عبدالصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر)، ١٤٠٢هـــ، في مقدمة محمود شاكر.

٢٦- العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السـيد بن بسـيوني زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ

٢٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، تحقيق: عبدالعزيز بن باز، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٨- الفهرسـت، لابن النديم، تحقيق: الدكتور/ علي يوسـف طويل، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٩- فوات الوفيات، للكتبي، تحقيق: الدكتور/ إحسان عبَّاس، (بيروت، دار صادر)، (د. ت)

٣٠- الكشاف، للزمخشري، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، (بيروت، دار الكتب العلمية)، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣١- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ١٤١٣هـ.

٣٢- لسان العرب لابن منظور (بيروت: دار صادر) د. ت.

٣٣- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيّة، للسفاريني، (دمشق، مؤسسة الخافقين)، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

٣٤- مباحث في إعجاز القرآن، الدكتور/ مصطفى مسلم، (جدة، دار المنارة)، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٥- المثل السائر لابن الأثير، ت: محمد محيي الدين (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٦هـ).

٣٦- معالم المنهج البلاغي عند القاهر الجرجاني، الدكتور/ محمد بركات حمدي أبو علي، (عمان، دار الفكر)، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٧- المعجزة الكبرى للقرآن، لمحمد أبو زهرة، مصر، (دار الفكر العربي)، (د. ت)

٣٨- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحَّالة، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، (د. ت).

٣٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي، (القاهرة، دار الحديث)، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٤٠- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت: عبدالسلام هارون (بيروت: دار الجيل، ١٤٢٠هـ).

٤١- المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبدالجبار، (بيروت، دار الكتب العلمية).

٤٢- مفتاح العلوم، للسكاكي بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

٤٣- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت: محمد سيد كيلاني (بيروت، دار المعرفة).

٤٤- مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، الدكتور/ أحمد جمال العمري، (دار

المعارف)

٤٥- المقدمة، ابن خلدون، (بيروت، دار إحياء التراث العربي).

٤٦- الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (بيروت، دار المعرفة)، (د. ت).

٤٧- الموافقات للشاطبي، تحقيق: عبدالله دراز، (الرياض، مكتبة الرياض الحديثة).

٤٨- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، (بيروت، دار المعرفة)، (د. ت).

٤٩- النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، الدكتور/ قطب الريســوني، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٥٠- نظرات معاصرة في القرآن الكريم، محمد حسين الصغير، (بيروت، دار المؤرخ العربي).

٥١- الوسيط في أصول الفقه الإسلامي، الدكتور/ وهبة الزحيلي، (دمشق، المطبعة العلمية).

٥٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق: الدكتور/ إحســان عبَّاس، (بيروت، دار صادر)، (د. ت).

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٥٥
٢	مدخل	٥٦
٣	المبحث الأوَّل: الإعجاز لغةً، واصطلاحاً	٥٨
٤	المبحث الثاني: نشأة مصطلح الإعجاز	٦٣
٥	المبحث الثالث: وجوه إعجاز القرآن	٧٠
٦	مباحث في تأصيل القول بالإعجاز	٧٢
٧	أولاً: الإعجاز ليس مقصوداً لذاته، وإنما المقصود لازمه	٧٢
٨	ثانياً: القرآن معجز بنفسه	٧٤
٩	ثالثاً: القرآن تستمد منه القواعد، ولا يخضع لقاعدة	٧٦
١٠	رابعاً: الإعجاز القرآني بين الإطلاق والتقييد	٧٨
١١	خامساً: أوجه الإعجاز القرآني تتسق، ولا تفترق	٨٠
١٢	سادساً: الاختلاف في وجوه الإعجاز، إعجاز	٨٢
١٣	الخاتمة	٨٤
١٤	قائمة المصادر والمراجع	٨٥
١٥	فهرس الموضوعات	٨٩